المحاضــرة الرابعة :

الأسلوبيـة البنيويــة

تحلل الأسلوبية البنيوية الأسلوب من خلال التركيب اللغوي للخطاب، فتحدد العلاقات التركيبية للعناصر اللغوية في تتابعها، وذلك بالإشارة إلى الفروق التي تتولد في سياق الوقائع الأسلوبية ووظائفها في الخطاب الأدبي .

إن مهمة الأسلوبية البنيوية اكتشاف القوانين التي تنظم الظواهر الأساسية في الخطاب الأدبي ، وترى أن النص يشكل بنية قائمة بذاتها ذات علاقات داخلية بين عناصره لها قوانين خاصة بها، ويمثل هذا الاتجاه من الدراسات الأسلوبية كل من "رومان جاكبسون" و" ميشال ريفاتير".

يقول جاكبسون : « إذا أردنا أن نصف في إيجاز الفكر الذي يقود العلم الحديث في تجلياته المختلفة ، فلن نجد تعبيرا أدق من كلمة بنيوية ، إذ كل مجموعة من الظواهر التي يعالجها العلم الحديث تعالج لا باعتبارها تجميعا ميكانيكيا بل كوحدة بنيوية كنسق ، والمهمة الأساسية هي اكتشاف قوانين النسق الجوهرية سكونية كانت أو دينامية ، فليس المؤثر الخارجي هو ما يشغل العلم الحديث بل الشروط الداخلية للتطور، وليس التكوين في المظهر الميكانيكي بل الوظيفة ، فجاكبسون يدعو إلى دراسة الخطاب دراسة نسقية واكتشاف القوانين الداخلية المتحكمة فيه وفي وظائفه .

يرى جاكبسون أن اللغة في الخطاب تؤدي ست وظائف هي : الوظيفة الانفعالية والمرجعية والشعرية والانتباهية والانعكاسية والإدراكية ، وهي تجسد عملية الإيصال في دوائرها المختلفة ، لكنه يركز على الوظيفة الشعرية لكونها أبرز وظائف الفن اللغوي الأدبي، وتتحقق من خلال مبدأي الاختيار والتركيب .

إن عمليتي الاختيـار والتركيـب ، هما عمليتان متواليتـان فـي الزمـن ومتطابقتـان في الوظيفة ، وهما اختيار المتكلم لأدواته التعبيرية من الرصيد المعجمي للغة ثم تركيبه لها تركيبا تفضي بعضه قوانين النحو، وتسمح ببعضه سبل التصرف في الاستعمال، ويتحدد الأسلوب بأنه التوافق بين العمليتين أي تطابق جدول الاختيار على جدول التوزيع ، ما يفرز انسجاما بين العلاقات الاستبدالية .

كما تتحقق الوظيفة الشعرية بجدوى "الانحراف" أو "الانزياح" أي الخروج عن المألوف في الاستعمال اللغوي ، فهي لا تقوم بالإبلاغ وإنما جعل الخطاب الأدبي يتميز بأبعاد فنية جمالية .

فالأسلوبية البنيوية تسعى إلى تحديد النص من خلال العلاقات الموجودة فيه باعتباره عملا لغويا غير محدود بوظيفته الأولية التبليغيـة التي هي التواصل بين الناس ، فاللغـة في النص الأدبي لغة شعرية غنية بعلاقاتها الدلالية وإبعادها الفنية ، وهو ما ذهب إليه تودوروف الذي يقول: « إن العمل الأدبي لم يعد كأي منطوق لغوي آخر مصنوع من الكلمات ، بل إنه مصنوع من جمل وهذه الجمل خاضعة لمستويات متعددة من الكلام » ، فهو يريد أن يبين أن خصوصية العمل الأدبي تكمن فيما يقوم عليه من علاقات متعددة غير مألوفة ، فالأسلوب عنده يتحدد بالانزياح الذي يرى أنه ما كان ليوجد لو أن اللغة الأدبية كانت تطبيقا كليا للأشكال النحوية الأولى .

بدأت معالم الأسلوبية البنيوية مع "رومان جاكبسون" الذي انطلق في جهوده من مقولات الشكلانيين الروس إلا أن "ميشال ريفاتير" يعد زعيمها ، فقد أخذت معه مسارا مهما في تناول الأسلوب في النص الأدبي ، وقد أفرد كتابا خاصا لهذا الاتجاه سماه " محاولات في الأسلوبية البنيوية " صدر سنة 1971م .

حدد ريفاتير موضوع الدراسة الأسلوبية البنيوية ، وهو " النص الأدبي " وهو ما أغفلته الأسلوبية التعبيرية ، كما يرى أن مختلف المعارف مجحفة في تحليله ، وهي علوم البلاغة واللسانيات والنقد الأدبي والشعرية والشرح الأدبي التقليدي لأن أغلبها « شمولي في أحكامه، وللنص الأدبي خصوصياته الفردية ، بينما الأسلوبية –حسب ريفاتير– لا تتولد من شمول ولا تقبل تعميقا، بل إن الشمول والتعميم يطمسان معالمها ولا يتركان منها أثرا ، فالمحلل الأسلوبي ينطلـق في البحث من النص الذي هو صرح مكتمـل البناء ولا يهدف إلى تعميم ما يتوصـل إليه من نتائج فهو يسخر جهوده كلها لتتبع سمة الفردية في النص الأدبي ، وهذه السمة الفردية هي التي تسمى " أسلوبا " ... وينتهي ريفاتير إلى أن الأسلوب هو النص نفسه » .

وذهب إلى أن الأسلوب لا يتحدد إلا عن طريق المتلقي ، إذ يعرفه بأنه إبراز عناصر الكلام وحمل المتلقي على الانتباه لها ، بحيث إذا هو غفل عنها شوَّه النص ، وإذا حللها وجد دلالات متميزة خاصة .

ويبين ريفاتير دور القارئ في الدراسة الأسلوبية التي تمر بمرحلتين :

1– مرحلة الوصف أو اكتشاف الظواهر وتعيينها ، وتسمح للقارئ بادراك وجوه الاختلاف بين النص والبنية النموذج الموجودة في حسه اللغوي ، فيكتشف التجاوزات والمجازات وصنوف الصياغة .

2– مرحلة التأويل ، وهي تابعة للمرحلة الأولى وفيها يتمكن القارئ من الغوص في النص وفكه على نحو تترابط فيه الأمور وتتداعى ويفعل بعضها في بعض .

ساهمت الأسلوبيـة البنيويـة في رسم معالم الشعريـة ، فهي تقـوم عند جون كوهـن في كتابـه " بنيـة اللغـة الشعريـة " على مبدأ الاختيـار والتركيب وبهما تتم عمليات التحويل

الدلالي التي تطرأ على عناصر الكلام ، غير أن أسلوبية ريفاتير تركز على استجابة القارئ في تحديد سمات الأسلوب بينما تعول شعرية كوهن على الباحث اللغوي في تحديد تلك السمات والانزياحات .